

محمد موشموش

جامعة المسيلة (الجزائر)

Mohamed.mouchmouche@univ-msila.dz

ملخص:	معلومات المقال
تأسست بالمغرب الأوسط في بداية القرن الرابع للهجرة العاشر للميلاد مجموعة من مدن، أدت دورا كبيرا في الحركة العمرانية والفكرية بالمغرب الأوسط، من هذه المدن نجد: طنبنة والمسيلة، وتتس. كما أسست قبيلة صنهاجة أول مدينة بربرية بالمغرب الأوسط (أشير) في ظل الحضارة الإسلامية، ساهمت بشكل كبير في بسط النفوذ الفاطمي والصنهاجي بالمغرب الإسلامي، كما لعبت دورا كبيرا في التطور العمراني والمعماري لمدن المغرب الأوسط، وأثرت في العديد من المدن التي تأسست من بعدها خاصة مدينة قلعت بني حماد، والشواهد الأثرية المحفوظة بالمتاحف الوطنية خير شاهد على ذلك. يهدف هذا البحث إلى التعريف بالتاريخ السياسي والتطور العمراني لمدينة أشير، وإبراز توسعها العمراني منذ عهد زيري بن مناد إلى غاية تخريبها في عهد الدولة الموحدية.	تاريخ الارسال: 2022/02/25 تاريخ القبول: 2022/03/23
	الكلمات المفتاحية: ✓ المغرب الأوسط ✓ التاريخ السياسي ✓ أشير ✓ المدينة الإسلامية
Abstract:	Article info
Founded in the central Maghreb at the beginning of the century of 4AH/10AD several cities, played a major role in the urban and intellectual movement of the central Maghreb. The Sanhaja tribe also established the first Berber city in the central Maghreb (Asheer) in the shadow of Islamic civilization. She greatly contributed to the extension of Fatimid and Sanhaji influence in the Islamic Maghreb. She also played a major role in the urban development and architectural development of the cities of central Morocco, and inherited many cities that were founded after her, in particular the city of Qal'at Bani Hammad, and the archaeological evidence preserved in the national museums are the best witness to this. This research aims to introduce the political history and urban development of the city of Asher, and to highlight its urban expansion from the era of Ziri bin Manad until its destruction under the era of the Almohad state.	Received: 25/02/2022 Accepted: 23/03/2022 Key words: ✓ Central Maghreb ✓ Political history ✓ Achir ✓ The Islamic city

للمدن أهمية ومكانة متميزة في تاريخ الحضارة الإنسانية، إذ أن كلا منها يضم عددا كبيرا من السكان الذين يعيشون متقاربين ويكونون بعضهم مع بعض علاقات اجتماعية متعددة، ويتطلب تجمعهم نظاما إدارية تؤمن النظام والاستقرار والأمن وتسير نحو التقدم والازدهار، وتجمع العدد الكبير من الناس للعيش معا في مكان واحد يبرر بشكل واضح حاجاتهم المادية، ويتطلب تخصص في العمل لتسيير توفر الحاجات الواسعة التي تؤمن مسكنهم ومآكلهم وملبسهم والمتطلبات الحياتية الأخرى التي تزداد أو تنقص تبعا لطموحات السكان وأهوائهم وأذواقهم ومدى توافر الإمكانيات المادية لتحقيقها.

فإذا كانت المدينة الإسلامية تتأثر بالمعطيات الجغرافية التي تظهر فيها، فإن العامل الأكبر في تطورها هو تصرف أهلها، فالساكن هو العنصر الفعال في كل مدينة، حيث يتوقف ازدهار أو تدهور المدن على تصرفاتهم، وعلى مثلهم السلوكية والذوقية والفكرية يتوقف شكل المدينة وسماتها المميزة ومن حيث التعاملات فإن التبادلات تحدث ببطء.

ومن خلال ذلك كيف كانت صبغة مدينة أشير؟ وما هي الطبيعة الجغرافية لموقعها؟ وما هو سبب تطورها من الناحية العمرانية؟ هذا ما سوف نقدمه من خلال التعريف بالمدينة.

1. الإطار الجغرافي لمدينة أشير

1.1. الموقع الفلكي والجغرافي لمدينة أشير

تقع مدينة أشير فلكيا على خط 5°، 60'، 23.60 شرقا وعلى خط 55°، 35'، 13.80 غربا، وهي عبارة عن مواقع أثرية توجد ضمن كتل التيطري بالأطلس التلي فوق سهل أو ربوة تطل على بلدية الكاف الأخضر بالجنوب الشرقي لولاية المدية ناحية عين بوسيف، وجزءا منها ببلدية الكاف الأخضر التابع إداريا لدائرة عين بوسيف وتبعد عنها بمسافة 10 كلم على الطريق رقم 60 الرابط بين عين بوسيف وسيدي عيسى، جنوب شرق الجزائر العاصمة وتبعد عنها حوالي 150 كلم، يبلغ ارتفاعها 1120م عن سطح البحر. يسود المنطقة مناخ شبه صحراوي فهو يمتاز بالبرودة والرطوبة شتاء، والحرارة والجفاف صيفا. (تم تحديد الموقع الفلكي والجغرافي لمدينة أشير من خلال الموقع الإلكتروني <https://earth.google.com>)

وقد أهل هذا الموقع مدينة أشير أن تكون همزة وصل بين أهم الطرق في المغرب الوسيط، ومن خلال الوصف الذي ذكره البكري يمكن أن نستنتج أن المدينة كانت تربطها مع مجموعة من مدن المغرب الإسلامي طرق كثيرة خلال القرن 5هـ/10م (البكري، 1857، ص 68)، ففي اتجاه الشمال كان هناك مسلكان يوصلان بالبحر، المسلك الأول المار بسوق حمزة (البويرة) ينتهي إلى مرسى الدجاج، في حين يعبر المسلك الثاني بالمدينة، خزرونة وأغزر (بوفاريك) لينتهي إلى مدينة الجزائر، أما الطريق الثالث فيعبر مليانة ليصل إلى مدينة تنس، والطريق الرابع يمر بالمسيلة (هذه الطرق مازالت قائمة إلى اليوم).

غير أنّ ما يميز موقع أشير هو إشراف المدينة على الطريق التجاري الرئيسي خلال العصور الوسطى، إذ كان يوصل هذا المسلك الرئيسي المعروف بطريق القوافل المناطق الإفريقية الواقعة ما وراء الصحراء بالبحر المتوسط وبالشرق مرورا بسجلماسة وتاهرت وأشير والمسيلة والقيروان ومصر (البكري، 1857، ص 68)، إلى جانب هذا فإنّ موقع أشير يبعد بضعة كيلومترات غرب شلالة العداورة (Meginot) حيث كان بتقاطع في العهد الروماني طريقان، طريق (Le Rapidum limes سور جواب) و (Auzia سور الغزلان) لينتهي الطريق إلى الحد الروماني. (دفاتر أشير، 1992، ص 11).

بالإضافة إلى ذلك فإنّ تواجد المدينة بهذا الموقع جعلها ذات حماية طبيعية فعالة تتيح لعشرة رجال الدفاع عن الممر الشرقي للمدينة، حيث يقول البكري: "...وهي جليّة حصينة يذكر أنّه ليس في تلك الأقطار أحصن منها ولا أبعد متناولا ومراما، ولا يوصل منها بقتال إلّا من موضع يحميه عشرة رجال...وهي مع ذلك بين جبال شامخة محيطتها لها دائرة عليها..." (البكري، 1857، ص 59)، ويؤكد ذلك عبد الرحمن بن خلدون بقوله: "...اختط أي زيري مدينة أشير لتحصن بها في سفح الجبل المسمى تيطرا لهذا العهد..." (ابن خلدون، 1967 م، ج 6، ص 313).

2.1. الموقع الطبوغرافي

المنطقة عبارة عن تضاريس وعرة ذات اتجاه عام جنوبي شرقي - شمالي غربي، ويتميز أساسا بوجود قضبان حثية من الأليغوسين تتخللها طبقات من الغضار لثلاث، أو أربع مرات، غالبا ما يكثر فيها الجص بسبب كثرة الصخور الترياسية، ويبلغ سمك هذه التركيبة الإجمالي أكثر من 400م، هذه التركيبة الصخرية جعلت البناء الأشيري يعتمد تماما الحجارة السمكية في عملية البناء، والجص لتزين المباني، وفي شواهد القبور، وسوف نتكلم على ذلك في الدراسة المعمارية (دفاتر أشير، 1992، ص 11).

3.1. الموارد المائية

لم يكن لمدينة أشير نهر جاري يمر بها، حيث تذكر جل المصادر التاريخية أنّ مصدر ثروتها المائية هي العيون الكثيرة والوافرة التي كانت داخل المدينة، وقول ابن حوقل في ذلك: "... وأسواق وعيون مطردة ومزارع وأجنة واسعة مرحلة..." (ابن حوقل أبو القاسم، دون تاريخ الطبع، ص 90)، وذكر البكري عينا توجد شرقي المدينة وهي عين مسعود، ثم قال أنّ داخل المدينة توجد عينان غزيرتان لا يعرف لهما عمق: "...الذي ينفذ إلى عين مسعود وسائر نواحيها تزل عنها العيون فكيف الأقدام، وهي مع ذلك بين جبال شامخة محيطتها لها دائرة عليها، و بداخل مدينتها عينان ثرتان لا يبلغ لهما غور ولا يدرك قعر إحداهما تعرف بعين سليمان والأخرى بعين تالا نتيغ...." (البكري، 1857، ص 57)، ويقول صاحب كتاب الاستبصار: "...داخل المدينة عينان لا يبلغ لهما غور ولا يدرك لهما قعر من البناء الأول..." (مؤلف مجهول، 1985، ص 170)، وقال النويري: "... وفي وسطها عينان تجريان بماء غزير داخل مدينة أشير عينان ثرتان ماءها زلال..." (أحمد بن عبد الوهاب النويري، 1985، ص 305).

2. مدينة أشير من خلال المصادر التاريخية والجغرافية

إنّ الأوصاف الجغرافية التي قدمها الجغرافيون الأوائل لبلاد المغرب اتسمت بكونها ناقصة، ذلك أن هؤلاء لم تكن لهم دراية كبيرة عن المغرب الأوسط إلا القليل، ما عدا إفريقية التي تمكنوا من معرفة مسالكها وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية، ونسيجها العمراني بصفة جيدة.

لقد امتازت بعض الدراسات الجغرافية لبقية المغرب الإسلامي بالشمولية، حيث لا يهتمون بمدن المغرب الأوسط وقراه إلا من حيث الفتح الإسلامي لها، أو في الحديث على توغل المذهب الخارجي والشيوعي، أو تأثر هذه المدن بالحضارة الإسلامية، ولم ينتهي القرن العاشر الهجري حتى تمكن الجغرافيون من وضع أدب جغرافي هام، كما زودوا من يهتم بأمور المغرب الإسلامي بالكثير من المعلومات المفيدة خاصة من الناحية العمرانية والاجتماعية والاقتصادية.

عاصر ابن حوقل المتوفى سنة (367هـ/977م) الدولة الفاطمية، ومن تم لمدينة أشير، إلا أنه لم يقدم لنا معلومات كافية حول المظاهر الحضارية للمدينة، وإن كانت هذه المدة غير كافية لحدوث تطورا كبيرا بالمدينة وهذا إذا سلمنا أنها أسست سنة (324 هـ/936م)، لكنّه بالمقابل يشير أنّ المدينة يحيط بها سور وبها حصن، وأسواق... ومنها إلى أشير وهي مسكن آل زيري ابن مناد، والتي يحيطها سور وبها حصن وأسواق وعيون مطردة ومزارع وأجنة واسعة مرحلة...." (ابن حوقل، دون تاريخ الطبع، ص 90).

يعد كتاب المسالك وممالك لمؤلفه أبي عبيد البكري (توفي في سنة 476هـ)، من أهم المصادر الجغرافية التي تكلمت على مدينة أشير، لكونها أسست في زمان قريب من عصره، ومن سلطة كانت تحكم أيامه، وهذه الأخيرة كانت منطلق قبيلة صنهاجة نحو تأسيس دولة ستحكم ثلثي المغرب الأوسط، وجاء وصف البكري بالصيغة التالية: "...وقال محمد بن يوسف: أن الذي بنا أشير زيري والدليل على ذلك ما أنشده عبد الملك بن عيشون:

يا أيها السائل عن غربنا وعن محل الكهراشير

عن دار فسق ظالم أهلها قد شيدت للأفك والزور

أسسها الملعون زيرها فلمنة الله على زيري

وهي جليلة حصينة يذكر أنه ليس في تلك الأقطار أحصن منها ولا أبعد متناولا ومراما، ولا يوصل منها بقتال إلا من موضع يحميه عشرة رجال، وهو في شرقيها الذي ينفذ إلى عين مسعود وسائر نواحيها تزل عنها العيون فكيف الأقدام، وهي مع ذلك بين جبال شامخة محيطة لها دائرة عليها، وبداخل مدينتها عينان ثرتان لا يبلغ لهما غور ولا يدرك قعر إحدهما تعرف بعين سليمان والأخرى بعين تالا نتيغ، والذي بنا سورها بلجين يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي سنة سبع وستين وثلاثة مائة وخرّبها يوسف بن حماد بن زيري واستباح أموالها، وفضح حرّمها وذلك بعد أربعين وأربع مائة، ثم تراجع الناس إليها بعد خمس وخمسين..." (البكري، 1857، ص 57).

والغالب من قول ابن عيشون يؤكد أنّ المدينة أسست في عهد الدولة الفاطمية العبيدية، وبأمر من الخليفة الفاطمي، حتى تكون كمعسكرا وحاجزا ضد القبائل الزناتية الرافضة للمذهب الشعي، والمالية للدولة الأموية بالأندلس، وابن عيشون من كبار علماء القرن السادس للهجرة عالم جليل القدر كان على غاية من الصلاح والفضل، إخباريا محققا، وصف مدينة أشير خلال رحلة من الأندلس قاصدا الحج، وهو بلنسي المولد ونزيل مدينة المهدي وبها كانت عاصمة الدولة الزيرية بعد خروج الفاطميين نحو القاهرة، وتوفي بالإسكندرية مصر سنة (574هـ/1178م) (محمد مخلوف، 1930، ص152).

ويقول صاحب الاستبصار: "مدينة أشير بناها زيري بن مناد الصنهاجي، وتعرف بأشير زيري، وكانت مدينة قديمة فيها آثار عجيبة، وإنما بنى زيري سورها وعمرها فليس في تلك الأقطار أحسن منها، وهي بين جبال شامخة محيطتها بها، وداخل المدينة عينان لا يبلغ لهما غول ولا يدرك لهما قعر من بناء الأول، وبالقرب من المدينة بنيان عظيم يعرف بمحارب سليمان لم ير بنيان أعظم منه ولا أحكم، فيه من الرخام والأعمدة والنقوش ما يقصر عنه الوصف" (مؤلف مجهول، 1985، ص 170).

ويقول النويري: "ولما نظر زيري إلى موضعها قال لأصحابه هذا موضعكم الذي يصلح أن تسكنوه وعزم على بنائها وذلك في سنة (324هـ) في أيام القائم بأمر الله بن المهدي، قال فأمر زيري بإحضار البنائين والنجارين من حمزة والمسيلة وطبنة وبعث إلى القائم بأمر الله في طلب صناع فبعث إليه برجل لم يكن بإفريقية أعلم منه وأعانه بعدة كثيرة من الحديد وغيره وشرع زيري في البناء إلى أن كملت المدينة. وكانت زناته قد استطالت على أهل تلك الناحية من أيام بني الأغلب ثم تزايد ضررهم في أيام المهدي والقائم، فلما سمع القائم ببناء زيري هذه المدينة حمد الله تعالى على ذلك وقال مجاورة العرب خير لنا من مجاورة البربر وأعانه وساعده، ثم خرج زيري إلى طبنة والمسيلة وحمزة فنقل منها وجوه الناس إلى مدينة أشير فعمرت وجاءت حصنا منيعا لا تقاوت إلا من شرقيها يحميها عشرة رجال ولو لم يكن عليها سور لاستغنت بعلوها عن السور وفي وسطها عينان تجريان بماء عذب غزير، وامتألت البلد بالعلماء والفقهاء والتجار وتسامع الناس بها، ولم يكن الناس إذ ذاك يتعاملون بالذهب والفضة، وإنما بالبعير والبقر والشاة، فضرب زيري السكة وبسط العطاء في الجند وجعل لهم الأرزاق فكثرت الدنانير والدرهم في أيدي الناس واطمأنت نفوس أهل البادية للحرث والزراعة وصانهم زيري مما كان ينالهم من زناته وتمكنت العداوة بين صنهاجة وزناته" (النويري، 1985، ص 305).

يقدم لنا عبد الرحمن بن خلدون معلومات قيمة حول التاريخ السياسي وموقع مدينة أشير، ومؤسس المدينة، حيث يقول: "اختط أي زيري مدينة أشير لتحصن بها في سفح الجبل المسمى تيطرا لهذا العهد (الفترة الفاطمية)، حيث مواطن حصينة، وحصنها بأمر المنصور، وكانت من أعظم مدن المغرب، واتسعت بعد خطتها واستبحر عمرانها، ورحل إليها العلماء والتجار من القاصية..." (بن خلدون، 1967، ج 6، ص 313).

3. آراء المفكرين المسلمين حول المدينة الإسلامية

ركز المفكرون المسلمون في أبحاثهم عن المدينة الإسلامية على الشروط الواجب مراعاتها عند تخطيط المدينة، فوضع ابن أبي الربيع شروطا هامة أصبحت مقياسا متبعا في تخطيط المدن الإسلامية، ووقف عندها عدة باحثين عند دراستهم للمدن الإسلامية، حيث جعلها في ستة شروط وهي:

- **سعة المياه المستعذبة:** ويقصد في ذلك جلب المياه الصالح للشرب، وتيسيرها للرعية، أو تقوم المدينة على نهر جار، أو وفرة الينابيع من عيون عذبة يسوغها الشارب.

- **إمكان الميرة المستمدة:** حيث يجب أن تكون للمدينة أرياضا توفر لها الميرة، وأراضي زراعية تضمن لها الأمن الغذائي في حالة الحروب والحصار.

- **اعتدال المكان:** وجودة الهواء، إذ أن المدن التي تبنى في منخفض الأرض يركد فيها الهواء ويتجدد ببطء، والعامل المساعد على تجديد الهواء هو الريح، ومن ثم فإن المدن المؤسس على مكان معتدل، أو مرتفع فإن هوائها لطيف وصحي.

- **القرب من المراعي والاحتطاب:** وذلك لتوفير الكأ للمواشي، وتوفير الحطب للطهي والغذاء.

- **تحصين منازلها من الأعداء والذعار:** ويقصد بذلك تأمين الرعية من كل طارق.

- **أن يحيط بها السواد يعين أهلها:** ويقصد هنا القرى، والقبائل، وأرياض التي يجب أن تحيط بالمدينة، وتكون مددا عند الصريح، وتموينها بالميرة (شهاب الدين أحمد بن أبي الربيع، 1996م، ص106).

وبالتالي فإن القاعدة العمرانية هنا تقوم على قاعدة أصولية هي: جلب المصالح ودرء المفسد، وهو ما يبيّنه ابن أبي الربيع في جلب المصالح من الأصل الأول إلى الرابع ثم السادس، ودرء المفسد في الأصل الخامس، وهذا يعني أنه من شروط إنشاء المدن الإسلامية أن تقوم على أسس دينية ترعى المصلحة المرسله لجميع الناس كما تقوم على أسس استراتيجية واقتصادية، والذي ذكره ابن أبي الربيع إيجازا بليغ لهذه القواعد العامة البالغة الأهمية في تخطيط المدن على أسس استراتيجية واقتصادية، ولهذا كان المخططون للمدن الإسلامية الجديدة يحتاطون لأن تنشأ على ثمانية أسس هي:

- أن يسوق إليها الماء العذب لشرب حتى يسهل تناوله من غير عسف.

- أن يقدر طرقها وشوارعها حتى لا تضيق.

- أن يبنى فيها جامعا للصلاة في وسطها ليقرب على جميع أهلها.

- أن يقدر أسواقها بحسب كفايتها لينال سكانها حوائجهم من قريب.

- أن يميز قبائل سكانها، بأن لا يجمع أصداد مختلفة متباينة.

- أن يحوطها بسور خوف اغتيال الأعداء، لأنها بجملتها دار واحدة.

- أن أراد سكانها من ولى أمرها فليسكن أفسح أطرافها، وأن يجعل خواصه كنفا له من سائر جهاته.

- أن ينقل إليها من أهل العلم، والصنائع بقدر حاجة لسكانها حتى يكتفوا بهم، ويستغنوا عن الخروج إلى غيرها (شهاب الدين أحمد بن أبي الربيع، 1996م، ص106).

وجمع لنا الماوردي بالإضافة إلى الشروط التي وضعها المفكرون السابقون، وتعريفه لمصطلح مصر وعلاقة السلطان بال عمران بقوله وحفظ السلطان في عمارة البلدان والأوطان أوفى من حظ رعيته، لأنه أصل وهم فروعه، ومتبوع وهم أتباعه، والذي يعتبر في إنشائها ستة شروط، أحدهما: سعة المياه المستعبدة، والثاني: إمكان الميرة المستمدة. والثالث: اعتدال المكان الموافق لصحة الهواء والترية. والرابع: قرب مما تدعو الحاجة إليه من المراعي والأحطاب. والخامس: تحصين منازل من الأعداء والذعار. والسادس: أن يحيط به سواد يعين أهله بمواده، فإذا تكاملت هذه الشروط الستة في إنشاء مصر استحكمت قواعد تأبيده، ولم يزل إلا بقضاء محتوم، وأجل معلوم، ثم على منشيء المصر في حقوق ساكنيه ثمانية شروط، أحدهما: أن يسوق إليه ماء السارية إن بعدت أطرافه، إما في أنهار جارية، أو حياض سائلة، ليسهل الوقوف إليه من غير تعسف. والثاني: تقدير طرقه وشوارعه حتى تتناسب ولا تضيق بأهلها، فيستضر المار بها. والثالث: أن يبني جامعا للصلوات في وسطه ليقترب على جميع أهله ويعم شوارعه بمساجده. والرابع: أن يقدر أسواقه بحسب كفايته، وفي مواضع حاجته. والخامسة: أن يميز خطط أهله، وقبائل ساكنيه، ولا يجمع بين أصدقاء متنافرين، ولا بين أجناس مختلفين. والسادس: إن أراد الملك أن يستوطنه سكن منه في أفسح أطرافه، وأطاف به جميع خواصه، ومن يكفيه من أمر أجناده، وفرق باقيهم في بقية أطرافه، ليكفوه من جميع جهاته. وخص أهله بالعدل، وجعل وسطه للعوام أهله ليكونوا منكوفين بهم، وليقل ركوبه فيهم حتى لا يلين في أعينهم. والسابع: أن يحوطهم بسور إن تآخموا عدوا، أو خافوا اغتيا لا حتى لا يدخل عليهم إلا من أرادوه ولا يخرج عنهم إلا من عرفوه، لأنه دار لساكنيه، وحرز لمستوطنيه. والثامن: أن ينقل إليه من أعمال أهل العلوم والصنائع ما يحتاج أهله إليه حتى يكتفوا بهم، ويستغنوا عن غيرهم، فإذا قام منشئه بهذه الشروط الثمانية فيه، فقد أدى حق مستوطنيه، ولم يبق لهم عليه إلا أن يسير فيهم بالسيرة الحسنى، ويأخذهم بالطريقة المثلى، وقد صار من أكمل الأمصار وطنا، وأعدلها مسكنا (علي بن محمد الماوردي، 1981م، ص210).

وصنف الماوردي الأمصار إلى صنفين بقوله (الماوردي، 1981م، ص210)، والأمصار نوعان: مصر مزارع وسواد، ومصر فرصة وتجارة، فأما مصر المزارع والسواد فهو أثبت المصريين أهلا، وأحسنهما حالا، وأولاهما استيطاننا لوجود مواده فيه، واقتناء أصولهما منه. ومن شروطه، أن يكون في وسط سواده، وبين جميع أطرافه، حتى تعتدل مواده منها وتتساوى طرقه إليها، وهو موفر العمارة ما كان سواده عامرا. فإن نال أهله فيه حيف، فرقم الحيف في سواده، فأصابوا عيشا ودافعوا من زمان الحيف وقتا. وإن جار السواد على أهله كان لهم في المصر أمانا وملاذا، يكون كل واحد منها للآخر معاذا. أما مصر الفرصة والتجارة فهو من كمال الإقليم وزينة الملك، لأنه مقصود بتحف البلاد وطرف الأقاليم، فلا يعوز فيه مطلوب ولا ينقطع عنه مجلوب، والمعتبر فيه ثلاثة شروط أحدها: أن يتوسط أمصار الريف، ويقرب من بلاد المتاجر، فلا يبعد على طالبه، ولا يسبق على

قاصده. والثاني: أن يكون على جادة تسهل مسالكها، ويمكن نقل الأثقال فيها، إما في نهر، أو على ظهر. فإن تورعت مسالكه، وأجذبت مفاوزه عدل الناس عنه إلا من ضرورة. والثالث: أن يكون مأمون السبل لأهل الطرقات، خفيف الكلف قليل الأثقال، فإنه ليس يأتيه إلا جالب مجتاز يطلب من البلاد أجداها، فإن تورع هجر. وهذا أكثر البلدين طالبا، وأنشرهما في الأقاليم ذكرا، وهو معد لمطالب الملوك، لا لموادهم، فإن استمدوه وتحيفوه بالمكوس والأعشار نفروا عنه. وإن وجدوا سواه صار لأهل الضرورات دون الاختيار، ولا دوام لأوطان الأضرار، ولا يبعد أن يندرس، فيلحق المضطر بالمختار، وإن لم يستدركه سلطانه بتخفيف وإنصاف، لأن أمواله أموال تجارة متقلبة، لا يشق عليهم تحويلها، فهم يستوطنون من البلاد أعدلها، ويقصدون من المتاجر والمعاملات أسهلها، فإن نبا بهم وطن، فكل البلاد لهم وطن، قال الشاعر:

واترك محل السوء لا تحل به وإذا نبا بك منزل فتحول

وذكر ابن أبي زرع نقلا عن بعض الحكماء كما قال في مصنفه: "أحسن مواضع المدن أن تجمع خمسة أشياء وهي: النهر الجاري، والمحراث الطيب، والمحطب القريب، والصور الحصين، والسلطان، إذ به صلاح حالها وأمن سبلها وكف جبابرتها". وهذه الشروط التي ذكرها ابن أبي زرع أسقطها على مدينة فاس من أوائل المدن التي شيدت بالمغرب الإسلامي (علي بن أبي زرع، 1999، ص 40).

قدم ابن خلدون تحليلا للشروط السابقة حيث جمعها في شرطين: أولهما هو أمن المدينة أي حمايتها من شر كل طارق، والأمن الصحي للسكان ويكمن ذلك في اختيار موقع صحي يتجدد فيه الهواء لحماية الأبدان. والأمن يؤدي إلى استقرار السكينة، ووفود رؤوس الأموال والعلماء، فتتطور المدينة ويتسع عمرانها، والأمن من مقاصد الشريعة الإسلامية حيث يندرج ضمن حفظ المال والنفس. يقول ابن خلدون في ذلك: "... أعلم أن المدن قرار تتخذة الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه، فتؤثر الدعة والسكون، وتتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار. ولما كان ذلك للقرار المأوى وجب أن يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها، وجلب المنافع وتسهيل المنافع: فأما الحماية من المضار فيراعى لها أن يدار على منازلها جميعا سياج الأسوار، وأن يكون وضع ذلك في ممتنع من الأمكنة إما على هضبة متوعدة من الجبل، وإما باستدارة بحر أو نهر بها، حتى لا يوصل إليها إل بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها. ومما يراعى في ذلك للحماية من الآفات السماوية طيب الهواء للسلامة من الأمراض. فإن الهواء إذا كان راكدا خبيثا، أو مجاورا للمياه الفاسدة، أو لمناقع متعفنة أو لمروج خبيثة، أسرع إليها العفن من مجاورتها، فأسرع المرض للحيوان الكائن فيه لا محالة، وهذا مشاهد. والمدن التي لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الأمراض في الغالب، وقد اشتهرت بذلك في قطر المغرب بلد قابس من بلاد الجريد بإفريقية، فلا يكاد ساكنها أو طارقها يخلص من حمى العفن بوجه. وقد يقال إن ذلك حادث فيها، ولم تكن كذلك من قبل، ونقل البكري في سبب حدوثه أنه وقع فيها حفر ظهر فيه إناء من نحاس مختوم بالرصاص، فلما فضّ ختامه صعد

منه دخان إلى الجو وانقطع. وكان ذلك مبدءاً أمراض الحميات فيهبز وأراد بذلك الإتياء كان مشتملا على بعض أعمال الطلسمات لوبائه، وأنه ذهب سره بذهابه، فرجع إليها العفن والوباء. والذي يكشف لك الحق في ذلك أن هذه الأهوية العفنة أكثر ما يهيئها لتعفن الأجسام وأمراض الحميات ركودها، فإذا تخللتها الريح وتفتشت وذهبت بها يمينا وشمالا، خف شأن العفن والمرض البادي من الحيوانات. والبلد إذا كان كثير الساكن وكثرت حركات أهله فيتموج الهواء ضرورة، وتحدث الريح المتخللة للهواء الراكدة، ويكون ذلك معينا على الحركة والتموج. وإذا خف الساكن لم يجد الهواء معينا على حركته وتموجه، وبقي ساكنا راكدا وعظم عفنه وكثر ضرره. وبلد قابس هذه كانت عندما كانت إفريقية مستجدة العمران، كثيرة الساكن تموج بأهلها موجا، فكان ذلك معينا على تموج الهواء واضطرابه وتخفيف الأذى منه، فلم يكن فيها كثير عفن ولا مرض. وعندما خف ساكنها ركد هواؤها المتعفن بفساد مياهها، فكثر العفن والمرض. فهذا وجهه لا غير، وقد رأينا عكس ذلك في بلاد وضعت، ولم يراع فيها طيب الهواء. وكانت أولا قليلة الساكن، فكانت أمراضها كثيرة. فلما كثر ساكنها انتقل حالها عن ذلك وهذا مثل دار الملك بفاس لهذا العهد المسمى بالبلد الجديد، وكثير من ذلك في العالم. فتفهمه تجد ما قلته لك" (ابن خلدون، 2006م، ج2، ص 785، 786).

أما الشرط الثاني: هو جلب المنافع للسكان وذلك بقوله: "وأما جلب المنافع والمرافق للبلد فيراعى فيه أمور: منها الماء، بأن يكون البلد على نهر، أو بإزائها عيون عذبة ثرة، فإن وجود الماء قريبا من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء وهي ضرورة، فيكون لهم في وجوده مرفقة عظيمة عامة. ومما يراعى من المرافق في المدن طيب المراعي لسائمتهم إذ صاحب كل قرار لا بد له من دواجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب، ولابد لها من المرعى، فإذا كان قريبا طيبا، كان ذلك أرفق بحالهم، لما يعانون من المشقة في بعده. ومما يراعى أيضا المزارع، فإن الزروع هي الأقوات. فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها، فإن الحطب أسهل في اتخاذه وأقرب في تحصيله. ومن ذلك الشجر للحطب والبناء، فإن الحطب مما تعم البلوى في اتخاذه لوقود النيران للاصطلاء والطبخ، والخشب أيضا ضروري لسقفهم، وكثير مما يستعمل فيه الخشب من ضرورياتهم، وقد يراعى أيضا قربها من البحر لتسهيل الحاجات القاصية من البلاد النائية. إلا أن ذلك ليس بمثابة الأول، وهذه كلها متفاوتة بتفاوت الحاجات، وما تدعو إليه ضرورة الساكن، وقد يكون الواضع غافلا عن حسن الاختيار الطبيعي، أو إنما يراعى ما هو أهم على نفسه وقومه ولا يذكر حاجة غيره كما فعل العرب لأول الإسلام في المدن التي اختطوها بالعراق وإفريقية، فإنهم لم يراعوا فيها إلا الأهم عندهم، من مراعي الإبل وما يصلح لها من الشجر والماء والملح، ولم يراعوا الماء، ولا المزارع، ولا الحطب ولا مراعي السائمة من ذوات الظلف، وغير ذلك، كالقيروان والكوفة، والبصرة وأمثالها، ولهذا كانت أقرب إلى الخراب لما لم تراعى فيها الأمور الطبيعية..." (ابن خلدون، 2006م، ج2، ص 786).

وعلى هذا الأساس فإن الحاكم يختار المكان الأنسب لمدينته الذي يضمن من خلاله لساكن أو الرعية مقاصد الشريعة الإسلامية، وابن خلدون وصل إلى هذه الاستنتاجات من خلال التجارب التي مرت عليه في تجوله بمدن

المغرب الإسلامي، وهو ما يؤكد أن اختيار مواقع المدن لم يكن عشوائياً بل على أسس وقواعد تضمن للسكان مقاصد الشريعة، ويساعد على توسع خططها وتطور عمرانها.

وأفرد لنا ابن خلدون شرطان وجب توفرهما بالمدين الساحلية ارتبطت بتوفير الأمن، وذلك بقوله: "مما يراعى في البلاد الساحلية التي على البحر، أن تكون في جبل، أو تكون بين أمة من الأمم موفرة العدد، تكون صريخاً للمدينة متى طرقها طارق العدو، والسبب في ذلك أن المدينة إذا كانت حاضرة البحر، ولم يكن بساحتها عمران للقبائل أهل العصبية، ولا موضعها متوعر من الجبل، كانت في غير الليات، وسهل طروقها في الأساطيل البحرية على عدوها وتحيفه لها، لما يأمن من وجود الصريخ لها، وأن الحضر المتعودين على الدعة قد صاروا عيالاً وخرجوا عن حكم المقاتلة، وهذه كالإسكندرية من المشرق، وطرابلس من المغرب، وبونة وسلا. ومتى كانت القبائل والعصائب متوطنين بقربها، بحيث يبلغهم الصريخ والنفير، وكانت متوعدة المسالك على من يرومها باختطاطها في الهضاب والجبال وعلى أسنمتها، كانت لها بذلك منعة من العدو ويئسوا من طروقها، لما يكابدونه من وعرها، وما يتوقعونه من إجابة صريخها. كما في سبة وبجاية، وبلد القل على صغرها، ففهم ذلك و اعتبره في اختصاص الإسكندرية باسم الثغر من لدن الدولة العباسية، مع أن الدعوة من ورائها ببرقة وإفريقية، وإنما اعتبر في ذلك المخافة المتوقعة فيها من البحر لسهولة وضعها، ولذلك والله أعلم كان طروق العدو للإسكندرية وطرابلس في الملة مرات متعددة والله تعالى أعلم" (ابن خلدون، 2006م، ج2، ص 787).

ويقول ابن القاضي: "حكى عن الحكماء أنها قالت: لا تستوطن إلا بلداً فيه سلطان حاضر، وطبيب ماهر، ونهر جار، وقاض عدل، وعالم عامل، وأسواق قائمة، وقالت الحكماء أيضاً: أحسن المدن هي التي تجمع خمسة أشياء: نهر جار، ومحراث طيب، وحطب قريب، وسور حصين، وسلطان قاهر، إذ به صلاح أهلها وتأمين سبلها" (أحمد بن محمد ابن القاضي، 1973م، ج1، ص 42).

وإذا نظرنا بعمق إلى المسائل التي وردت في أفكار وتحليل العلماء المسلمين لوجدنا أن المقصد من هذا كله هو شرح والتعريف بمقاصد الشريعة الإسلامية (حفظ الدين، حفظ النفس، حفظ المال، حفظ العقل، حفظ النسل)، وهذه الكليات ليست مقتصرة على سلطان فقط بل هي واجب على كل فرد مسلم، حيث يسعى إلى تحقيقها من باب كلكم راع وكل راع مسؤول على رعيته، وهذه القواعد التي أسسها المسلمون للمدن كفلت الاحتياجات والاحتياجات لحياة إسلامية مستقرة بالإضافة إلى النظرة العضوية لكيان المدينة الإسلامية فهي بجملتها داراً واحدة، ويكشف هذا التناول عن أن تخطيط المدينة الإسلامية اهتم بالجوانب العمرانية والاقتصادية والاجتماعية. ومن خلال ما أفردناه حول جغرافية مدينة أشير وإسقاط شروط اختيار مواضع المدن يمكن أن نستنتج أن مدينة أشير قد استجابت لهذه الشروط، ووفق أميرها زيري بن مناد في ذلك.

4. التاريخ السياسي لمدينة أشير

1.4. الفترة الزيرية (تأسيس المدينة): (324-406هـ / 935-1016م)

يعود أصل الزيرين إلى قبيلة صنهاجة البربرية، من طبقة بنو ملكان، وكانت حدود أراضيها تمتد إلى غاية مسيلة على الجنوب الشرقي إلى غاية مدينة بجاية على الشمال الشرقي، ثم على امتداد السهل المتيجي من بلاد حمزة إلى غاية مدينة مليانة، ويقول في ذلك بن خلدون: "...كان أهل هذه الطبقة من بنو ملكان بن كرت، وكان مواطنهم بالمسيلة إلى حمزة إلى الجزائر والمدينة ومليانة من مواطن بني يزيد وحصين والعطاف من زغبة، ومواطن الثعالب لهذا العهد... وبعض أعقاب ملكانة بجهات بجاية ونواحيها..." (ابن خلدون، 1967م، ج6، ص 206).

وذكر المؤرخون أنّ مناد بن منقوس ملك جانبي إفريقية والمغرب الأوسط ومقيما لدعوة العباسية، وراجعا إلى أمر الأغالبة، وأقام أمره من بعده ابنه زيري بن مناد، وكان أعظم ملوك البربر وكان بينه وبين مغراوه من قبيلة زناته المتراسمين له من جهة المغرب الأوسط حروب كبيرة (صراع قديم كان حول ملكية أراضي المغرب الأوسط وامتد إلى غاية الفترة الإسلامية) (مختار حساني، 1978م، ص 26).

ولما دأب وانتشر أمر الفاطميين بإفريقية التزم زيري بن مناد بدعوتهم وكان من أكبر أوليائهم (حسن أحمد محمود، 1963م، ص 169)، وتجبر بهم على عدوه من مغراوه، فكانوا عوناً وسندا له، فأنحرفت مغراوه وسائر زناته عن الدعوة الشيعية سائر أيامهم وأعلنوا طاعتهم للدولة الأموية بالأندلس (موسى لقبال، 1979، ص 328)، ولما كانت فتنة أبي يزيد صاحب الحمار وتغلب وبارز الفاطميين في إفريقية والمهدية، وكان لزيري بن مناد منافرة على الخوارج وأصحاب أبي يزيد وأعقابهم (محمد بن عبد الله ابن أبار، 1963م، ج1، ص 290)، وجهز الحشود لمناصرة الفاطميين بالقيروان، وأثناء هذه الفترة أسس مدينة أشير سنة 324هـ/935م. (Bourouiba. R, 1982, p 78)

وقد اتفقت جل المصادر التاريخية أن مؤسس المدينة هو زيري بن مناد الصنهاجي (Bourouiba. R, 1982, p 78)، حيث يقول البكري (البكري، 1857، ص68): وقال محمد بن يوسف: أنّ الذي بنا أشير زيري والدليل على ذلك ما أنشده عبد الملك بن عيشون:

يا أيها السائل عن غربنا وعن محل الكفر أشير

عن دار فسق ظالم أهلها قد شيدت للأفك والزور

أسسها الملعون زيرها فلمنة الله على الزيري

ويقول صاحب الاستبصار (6هـ/12م) (مؤلف مجهول، 1985، ص 170): "...مدينة أشير بناها زيري بن مناد الصنهاجي وتعرف بأشير زيري...."، ويؤكد ابن عذارى ذلك بقوله: أما مدينة أشير بناها زيري بن مناد الصنهاجي، والدليل على ذلك ما أنشده عبد الملك بن عيشون:

يا أيها السائل عن غربنا وعن محل الكفر أشير

عن دار فسق ظالم أهلها قد شيدت للكفر والزور

أسسها الملعون زيرها فلعنة الله على زيري

كما أفرد لنا ابن عذارى نصا أشار فيه إلى سبب بناء المدينة بقوله: "...فكانت زناتة تغير على ثغر الشيعة العبيدية وتفسد فيه بشدة ما يكون من العبث و الفساد حتى بنى معد بن إسماعيل العبيدي ملك الشيعة بآخر إفريقية من جهة الغرب مدينة أشير ليغاور منها بلاد زناتة..." (ابن عذارى المراكشي، 1983م، ج1، ص 216)، قد أخلط ابن عذارى في اسم الأمير الفاطمي، ويبدو تاريخيا أنه أبا القاسم محمد القائم بالله الذي عاصر زيري بن مناد الصنهاجي (322 - 334هـ/934-945م)، علما أن تاريخ تولي معد بن إسماعيل الخلافة الفاطمية كان في سنة (341هـ/952م).

ويقدم لنا عبد الرحمن بن خلدون معلومات قيمة حول التاريخ السياسي ومؤسسها بقوله: " اختط (أي زيري) مدينة أشير لتحصن بها في سفح الجبل المسمى تيطرا لهذا العهد (الفترة الفاطمية)، حيث مواطن حصينة، وحصنها بأمر المنصور، وكانت من أعظم مدن المغرب، واتسعت بعد خطتها واستبحر عمرانها، ورحل عليها العلماء والتجار من القاصية..." (عبد الرحمن بن خلدون، 1967م، ج6، ص 313).

اتفق النويري (النويري، 1985، ص 305) وابن خلكان (ابن خلكان شمس الدين، دون تاريخ الطبع، ص 91) أن سنة تأسيس مدينة أشير هو (324هـ/935م)، في حين ذكر ابن الأثير أن سنة التأسيس هو (364هـ/974م)، حيث هذا التأريخ يوافق تاريخ بناء مدينة بنية حيث ذكر: "أن بلكين جاء بسكان مدينة تلمسان وبنى لهم مدينة أسموها تلمسان وهذا سنة (364هـ/971م)..." (ابن الأثير، 1353هـ، ج 7، ص 47).

ويعلل رشيد بورويبة هذا الاختلاف أن المعطيات التاريخية التي قدمها ابن الأثير متشابهة مع ما أفرد النويري، كما أشار أن بناء المدينة كان على عهد زيري بن مناد فيما نعلم أن تاريخ وفاته كان سنة (361هـ/972م)، وبالتالي لا تصح السنة المذكورة من قبل ابن الأثير كتاريخ لتأسيس المدينة، ويضيف بورويبة بقوله: "يبدو أن الناسخ قد أخلط بين الرقمين ٢ و ٦ (2، 6)" (Bourouiba. R, 1982, p 78).

وكان الصراع مريرا بين الزيريين والمغرويين حول بسط النفوذ في المغرب الأوسط، ويبدو أن الدولة الأموية بالأندلس كانت تخشى المد الفاطمي في المنطقة مما جعلها تدعم قبيلة مغراوة كي تكون حاجزا ومانعا لهذا النفوذ، حيث في سنة (360هـ / 972م) دارت حربا كبيرة بينهما قتل خلالها أمير الزيريين زيري بن مناد بعد كر وفر، ولما علم أبنة بلكين بن زيري، خرج إليهم من أشير وشرذ الزناتيين وثأر لأبيه وقومه، ولما علم أمير الفاطميين بانتصاره عقد له على عمل أبيه بأشير وتيهرت وسائر أعمال المغرب، وضم إليه المسيلة والزاب، ثم دعاه في سنة (361هـ/972م) لولاية إفريقية (ابن عذارى، 1983م، ج1، ط3، ص 216).

وفي سنة (362هـ/973م) حاصر بلكين بن زيري مدينة تلمسان بعد هروب زناته من أمامه، ثم قبل سكان مدينة تلمسان حكمه ونقلهم إلى مدينة أشير، وكان واليا عليها في هذه الفترة ابنه المنصور بن بلكين، وبقي على ذلك إلى غاية وفاة أبيه سنة (376هـ/989م) (النويري، 1985، ص 306).

لما تولى المنصور بن بلكين إمارة الزيريين عهد إلى أخيه يطوفت مدينة أشير، ثم خرج منها سنة (377هـ/990م) إلى المغرب الأقصى يريد استرجاعه ولكنه أنهزم أمام أمير فاس زيري بن عطية الملقب بالقرطاس فر راجعا إلى أشير ولم يعاود الكرة في محاربة المغراويين بعد ذلك (ابن عذارى، 1983، ج1، ص 216).

وفي سنة (377هـ/990م) عهد المنصور بن بلكين إلى أخيه حماد على أشير، وبقيت المدينة تحت ولاية حماد بن بلكين إلى غاية وفاة المنصور بن بلكين سنة (385هـ/994م)، حيث أنه وفي سنة (389هـ/999م) أمر باديس بن المنصور عمه يطوفت على مدينة أشير، وفي سنة (391هـ/1001م) أظهرت زناته الفساد وأضروا بالسابلة وحاصروا المسيلة وأشير، فصرح إليهم باديس عمه حمادا سنة (398هـ/1107م) فأثنى فيهم وأسس في هذه السنة حماد القلعة، ولكن نشبت الحرب بين باديس وعمه حماد، فحارب باديس الحصار على القلعة، لكنه توفي فجأة أثناء الحصار فحمل إلى القيروان سنة (406هـ/1016م) (ابن عذارى، 1983، ج1، ط3، ص 210).

ولما صارت إمارة الزيريين للمعز بن باديس نشبت حربا مع الحماديين ويقول في ذلك بن خلدون: "... ولما بلغ الخبر بمهلك باديس ببيع ابنه المعز ابن ثمان سنين، ووصل العسكر فبايعوه البيعة العامة، ودخل حماد المسيلة وأشير، واستعد للحرب وحاصر باغاياه، وبلغ الخبر بذلك فزحف المعز إليه وأفرج عن باغاياه ولقيه وإنهزم حماد وأسلم معسكره، وتقبض على أخيه إبراهيم ونجا إلى القلعة، ورغب في الصلح فاستجيب له على أن يبعث ولده، وانتهى المعز إلى سطيف وقصر الطين وقفل إلى حضرتها ووصل القائد بن حماد بعمل المسيلة وطبنة والزاب وأشير وتاهرت وما يفتح من بلاد المغرب.... ورفعت الحرب أوزارها من يومئذ واقتسموا المظلة والتحموا بالأصهار وافترقت صنهاجة إلى دولتين: دولة المنصور بن بلكين أصحاب القيروان، ودولة حماد بن بلكين أصحاب القلعة..." (ابن خلدون، 1967، ج6، ص 313)، وكان ذلك سنة (408هـ/1018م)، وبعد هذه الواقعة أصبحت مدينة أشير تابعة للدولة الحمادية بالقلعة.

2.4. الفترة الحمادية: (547-408هـ / 1018-1152م)

لما هلك حماد بن بلكين خلفه ابنه القائد سنة (419هـ/1029م) عين أخاه يوسف على المغرب وويغلان على حمزة وأشير، وفي سنة (430هـ/1039م) زحف حمادة بن زيري بن عطية ملك فاس على المغرب الأوسط، فصالحه القائد ودخل في طاعته، ثم زحف عليه المعز صاحب القيروان سنة (434هـ/1044م) وحاصره مدة ثم صالحه القائد بن حماد صاحب القلعة، ولما انصرف المعز من حصار القلعة حاصر في نفس السنة مدينة أشير فاستعصت عليه لحصانة موقعها وصلابة أسوارها، وفي سنة (446هـ/1054م) توفي القائد بن حماد فخلف ابنه

محسن بن القائد، وفي عهده ثار عليه عمه يوسف بن حماد ولحق بالمغرب وقتل سائر أولاد حماد وخرب مدينة أشير التي يبدو أنّ عمارتها تراجعت بعد تأسيس القلعة، وفي سنة (447هـ/1055م) قتل محسن بن القائد من طرف ابن عمه بلكين بن محمد، وكان هذا الأخير كثير الغزو على المغرب الأقصى، ومنها زحفه على المرابطين، ففروا من أمامه إلى الصحراء وتوغل في ديار المغرب وعند عودته إلى القلعة قتله ابن عمه الناصر بن علناس سنة (454هـ/1062م)، وقام بالأمر من بعده ووزع الولاة على المدن، فجعل أشير لابنه يوسف بن الناصر، وفي هذه السنة زحف المستنصر بن خزرون الزناتي مع جمع من قبائل الأثبيج وزغبة من إفريقية ورغبهم في المغرب الأوسط فسار بهم إلى المسيلة ودخلوا أشير ونزلوا في بسائطها وأفسدوا العمران والسابلة فخرج إليهم الناصر بن علناس ففروا إلى الصحراء ثم رجعوا مرة أخرى للفساد، ولكن الناصر استطاع القضاء عليه بمساعدة ولي دولته في منطقة الزاب عروس بن الهندي وعلق رأسه ببجاية، وفي عهده ملك يوسف بن تاشفين مدينة تلمسان ووصل إلى مدينة الجزائر سنة (474هـ/1082م) (ابن عذارى، 1983م، ج1، ص 279).

وفي سنة (481هـ/1089م) توفي الناصر بن علناس، فخلفه ابنه المنصور بن الناصر، ووقع صراع كبير بين الحماديين والمرابطين على أراضي المغرب الأوسط، ففي سنة (496هـ/1103م) زحف والي تلمسان لدى المرابطين على المغرب الأوسط وملك مدينة أشير وخربها بإذن يوسف بن تاشفين، ولكن المنصور بن علناس استطاع استردادها في نفس السنة، وزحف على تلمسان فملكها، ولكن حدث صلحا بين الفريقين على ألاّ تتعدى الدولة المرابطية مدينة الجزائر (ابن عذارى، 1983م، ج1، ص 301).

لم تذكر المصادر التاريخية مدينة أشير بعد هذه الفترة، ولعل السبب في ذلك يرجع لقلة أهميتها لأنها تحولت إلى مدينة تابعة لولاية تلمسان حيث أنّها أصبحت تحت سلطة الدولة الموحدية بعد إسقاط الدولة الحمادية وآخر أمراءها يحيى بن عبد العزيز سنة (547هـ/1152-1153م). وفي عهد الدولة الموحدية لم تُذكر كثيرا ما عدا أنّ بعض النصوص تشير إلى أنّ غزي الصنهاجي حليف بني غانية قد أحرقوها خلال ثورتهم ضد الموحدين كما فعله في عدة مدن المغرب الأوسط سنة (581هـ/1180م) (محمد بن الأعرج السليمانى، ورقة 78).

5. التطور العمراني لمدينة أشير

لم الصعب تحديد معالم مدينة أشير، وهذا راجع أولا لنقص الدراسات التاريخية والأثرية التي تناولت الجانب العمراني للمدينة، وكذلك قلة الأبحاث الأثرية، وهذا ما جعلنا نعتمد على نتائج ما توصل إليه الفرنسيين من خلال حفرياتهم أو تقاريرهم، حيث زار النقيب رودى أشير سنة (1327هـ/1908م) واكتشف بها ثلاثة مواقع مختلفة وهي: (Capitaine Rodet, 1908, P 86)

1.5. منزله بنت السلطان

يقع منزله بنت السلطان على نحو 10 كلم شمالي الشمال الشرقي لعين بوسيف وهو عبارة عن حصن مشيد بالكاف الأخضر على قمة صخرة يبلغ طولها 272م وعرضها 25م وارتفاعها 1300م يحيط بها مبنى بالحجر يبلغ سمكه مترين، وادخل السور برج وبناء مستطيل وصهريج وبئر.

البرج على شكل نصف دائرة، وهو عبارة عن غرفة واحدة يبلغ طول البناء المستطيل 30م وعرضه 15م، ويحتوي على أربع غرف و صحن ويبلغ طول ضلع الصهريج 10م وعمقه 1.5م، أما البئر المتصل به فهي اسطوانية الشكل ويبلغ قطرها 2.52م وعمقها 1.50م.

2.5. قصر أشير

تقع على نحو 12 كلم شرقي الشمال الشرقي لعين بوسيف ويحيط بها سورة سمكه 2م، وبها قطع كثيرة من القرميد والأجر والفخار، ولكن أهم ما عثر في هذا الموقع هو القصر الذي اكتشفه قولفان (Golvin . L, 1987, p 202)، هذا القصر مستطيل الشكل طوله 72م وعرضه 40م مشيد بالحجر يحيط به سور مدعم بدعامات كبيرة ومربعة الشكل في الزوايا ومستطيلة على مستوى الأضلاع، نلج إليه من باب بارز بحوالي ثلاثة أمتار وعرضه تسعة أمتار يشبه باب مسجد المهديّة، وتبرز فيه التأثيرات الفاطمية، وليس غريبا أن يكون القصر بناه مهندس من إفريقية أرسله الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله بن المهدي إلى زيري بن مناد، ويؤدي هذا الباب إلى صحن كبير وسطي طوله 35م وعرضه 33م يحيط به مجموعة من المباني، ويمتاز هذا القصر أيضا بتناظره التام الذي يذكرنا القصور الأموية ببادية الشام أنظر المخطط (1).

3.5. البنية

تقع على مسافة 2500م شرقي أشير، يوجد فيها سور من الحجر سمكه 2م، وبقايا بناء مستطيل طوله 21م وعرضه 19م يقول النقيب رودي أنه كان حماما، أما جورج مارسى فذهب إلى أنّه كان مسجدا (أنظر المخطط 2) (Marçais .1922,p21)

خاتمة

تحتاج المدن الأثرية في بلادنا إلى دراسة جديدة تعتمد أساسا على نتائج الحفريات التي أقيمت فيما قبل وحفريات جديدة، فعليه فإن مدينة أشير من أقدم المدن بالمغرب الإسلامي، وتخفي في طياتها حقائق تاريخية تساعد الباحثين على كتابة تاريخ المدينة من جديد، وكذلك الاطلاع على الصنائع التطبيقية، وعلاقاتها بمدن الجوار والدول الإسلامية الناشئة بالمغرب والمشرق والأندلس، ومن ثم فإنها تحتاج إلى تنظيم حفريات جديدة من شأنها تحديد معالمها المعمارية وخططها.

إنّ مدينة أشير بحكمها عاصمة لدولة صنهاجية (في كنف الدولة الفاطمية) نشأت لتكون حدا فاصلا وحاجزا للمد الزناتي نحو إفريقية، كما لعبت دورا هاما في كبح جماح الدولة الأموية في الأندلس وتطلعاتهم المشرقية.

إنّ انتقال الدولة الزيرية إلى إفريقية واتخاذ من المهديّة عاصمة لهم بعد نزول الدولة الفاطمية بالمشرق الإسلامي، جعل من مدينة أشير مدينة ثانوية، حيث فقدت أهميتها التي نشأت من أجلها خاصة بعد الصراع الذي كان بين الدولة الزيرية والدولة الحمادية، هذه الأخيرة اتخذت من القلعة عاصمة لها، فتحوّلت أنظار العلماء والصناع إليها فتطورت وازدهرت على حساب مدينة أشير.

مدينة أشير عاصمة الإمارة الزيرية بالمغرب الأوسط 324هـ/935م

إنّ الصراع السياسي المسلح الذي شاهده منطقة المغرب الأوسط خلال القرن السادس للهجرة بين الدولة الموحدية وبني غانية أثر سلبا على نمو المدن التي أنشأت في فترة مبكرة، حيث توقفت عملية البناء، وهجرة الجماعات السكانية إليها، وقد عانت مدينة أشير مرارة من هذا الوضع ففقدت عمرانها وبريقها الحضاري.

ملاحق:



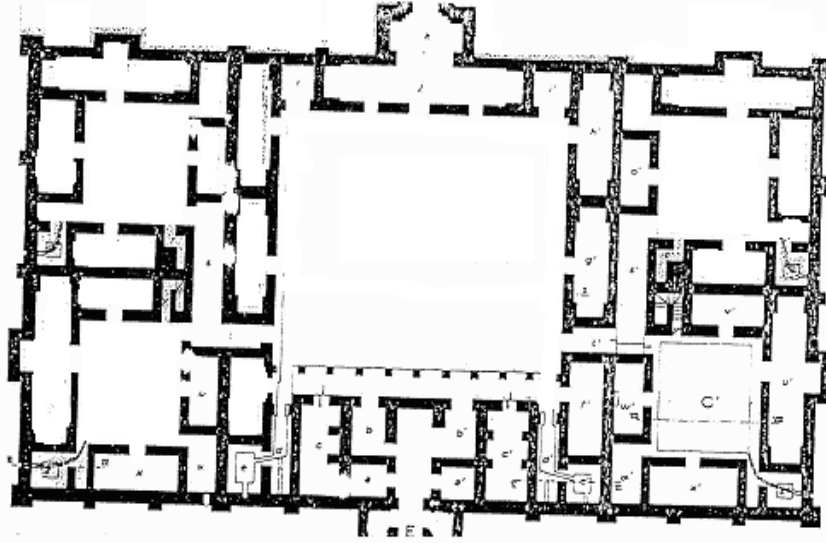
الصورة (1): بقايا من قصر أشير

من أرشيف الأستاذ لخضر درياس (1992)، المتحف الوطني للآثار القديمة والفنون الإسلامية



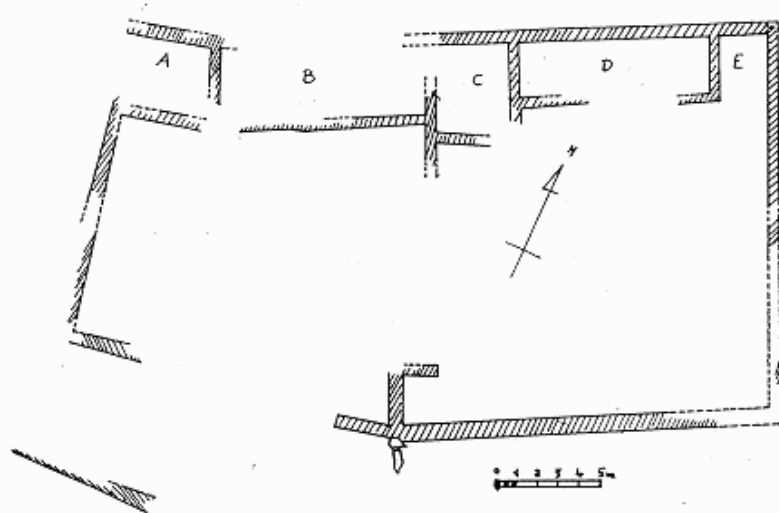
اللوحة (2): بقايا من أشير الشرقي

من أرشيف الأستاذ لخضر درياس (1992)، المتحف الوطني للآثار القديمة والفنون الإسلامية



الخطة (1): محطط القصر

عن: المتحف الوطني للآثار القديمة، دفاتر مدينة أشير، تقرير حفرة 1991م، ص 50.



الخطة (2): أشير الشرقي

عن: المتحف الوطني للآثار القديمة، المرجع السابق، ص 44.

قائمة المصادر والمراجع:

1-المخطوط:

- السليمانى محمد بن الاعرج حسيني، زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ، ج2، مخطوط محفوظ بالمكتبة الوطنية بالرباط (الخزانة العامة سابقا) تحت رقم: 3657د، رقم الميكروفيلم: 4779، الرباط، المملكة المغربية.

2-قائمة المصادر:

- ابن أبار محمد بن عبد الله، (1963م)، الحلة السيرة، تحقيق حسين مؤنس، ط1، القاهرة.
- أبو عبيد البكري، (1857م)، كتاب المسالك وممالك، تحقيق ديسلان، الجزائر.
- ابن الأثير، (1353هـ)، الكامل في التاريخ، ط4، طبعة القاهرة.
- ابن حوقل أبو القاسم، دون تاريخ الطبع، كتاب صورة الأرض، بيروت، لبنان، مكتبة الحياة.
- ابن خلدون عبد الرحمن، (1967م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ط3، بيروت، لبنان، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر.
- ابن خلدون عبد الرحمن، (2006م)، المقدمة، تحقيق عبد الواحد وافي، مصر، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
- ابن خلكان شمس الدين، دون تاريخ الطبع، وفيات الأعيان، بيروت، لبنان.
- ابن عذاري المراكشي، (1983م)، بيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق كولان وليفي بروفنسال، بيروت، لبنان، دار الثقافة.
- ابن القاضي أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي، (1973م)، جدوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، الرباط، دار منصور.

- ابن منظور جمال الدين، (2010م)، لسان العرب، ط1، بيروت، لبنان، دار إحياء التراث العربي.
- محمد بن محمد مخلوف، (1930)، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية، القاهرة.
- مؤلف مجهول، (1985م)، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ووصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء، المغرب، دار النشر المغربية.
- شهاب الدين أحمد بن أبي الربيع، (1996م)، سلوك المالك في تدبير الممالك، تحقيق، عارف أحمد عبد الغني، دمشق، سوريا، دار كنانة للطباعة والنشر والتوزيع.
- علي بن أبي زرع، (1999م)، الأتيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، راجعه عبد الوهاب بن منصور، الرباط، المغرب، المطبعة الملكية الرباط.
- الناصري السلاوي، (1997م)، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، ط1، الدار البيضاء، المغرب، دار الكتاب.
- النويري أحمد بن عبد الوهاب، (1985م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد، الدار البيضاء، المغرب، دار النشر المغربية.

قائمة المراجع باللغة العربية:

- إسماعيل العربي، (1984م)، عواصم بني زيري، بيروت، لبنان.
- بورويبة رشيد، (1984م)، الحضارة الفاطمية والزيرية، "في كتاب الجزائر في التاريخ من الفتح إلى البداية العهد العثماني"، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.
- حسن أحمد محمود، (1963م)، الإسلام والثقافة العربية بإفريقية، القاهرة، مصر، دار النهضة العربية.
- لقبال موسى، (1979م)، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن 5 هـ / 11م، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

3-الرسائل الجامعية:

- حساني مختار، (1978م)، الصراع بين الأمويين والفاطميين على السيادة في المغرب الإسلامي خلال القرن 4هـ/10 م، مذكرة دبلوم الدراسات المعمقة، معهد علم الاجتماع، جامعة الجزائر.

4-الموسوعات:

- موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، (2007م)، الجزء الأول، مدن الوسط، الجزائر، دار الحكمة.
- دفاتر أشير، 1992م، تقرير حفرة 1991، المتحف الوطني للآثار القديمة، العدد الأول.

5-قائمة المراجع باللغة الفرنسية:

- Bourouiba. R , (1982), **Cite disparues, Tahert, Sedrata, Achir, Kalla des béni hammad** , Réghaia, Alger, SNED.
- Golvin . L, (1908), **Le Maghreb central à l'époque des zirides**, Paris.
- Capitaine Rodet, (1908), **Les ruines d'Achir**, Revue Africaine, 1° trimestre.
- Marçais. G, (1922), **Recherche d'Archéologie musulmane**, Revue Africaine, 1° trimestre.

6-المواقع الالكترونية:

https://earth.google.com/web/search/%d8%a3%d8%b4d9%8a%d8%b1+%d8%8c+%d8%a7%d9%84%d9%85%d8%af%d9%8a%d8%a9+%d8%a7%d9%84%d8%ac%d8%b2%d8%a7%d8%a6%d8%b1/@35.92176923,3.29115321,1147.63673858a,1218.26162652d,35y,0h,0t,0r/data=CigiJgokCayHm21E90FAERA4R7FH9kFAGdiCGIO_bApAle4vY2D8Qwp<